الأخبار
al-akhbar

رئيس التحرير ـ المدير المسؤول:
ابراهيم الأمين

نائب رئيس التحرير:
بيار أبي صعب

مدير التحرير:
وفيق قانصوه

مجلس التحرير:
محمد زبيب
حسن عليق
إيلي حنا
أمل الأندري
شربل كريّم

صادرة عن شركة
أخبار بيروت

المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق الثامن
تلفاكس:
01759500
01759597
ص.ب 113/5963

الإعلانات
الوكيل الحصري
ads@al-akhbar.com
01/759500

التوزيع
شركة الأوائل
01 /666314ـ15 ـ
03 / 828381

الموقع الالكتروني
www.al-akhbar.com

صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

أولادنا وأولادهم في المنظومة الأخلاقية الإسرائيلية

جوزيف مسعد *

دأبت الجهود السينمائية الصهيونية الأميركية على تصوير استعمار فلسطين واستيطانها على أنها «النضال اليهودي للتحرر الوطني»، وكانت هذه الجهود قد أحرزت أهم انتصار لها عبر النجاح الباهر الذي حقّقه الفيلم الهوليوودي الصهيوني «الخروج» Exodus عام 1960، والذي جيّش المشاعر المساندة لإسرائيل، وما فتئ حتى اليوم يمثّل مصدر إلهام للشباب الأوروبي والأميركي الصهيوني. فالفيلم لا يذكر كيف قام الصهاينة بغزو وطن الفلسطينيين وطرد معظم شعبه وسرقة أراضيه، بل يصوّر الفلسطينيين كعقبة من الكراهية وقفت في وجه إقامة وطن حصري لليهود.

المنظومة الأخلاقية المتفوّقة

وكان فيلم «ميونيخ» الناجح للمخرج الهوليوودي ستيفن سبيلبرغ، الذي عُرض في عام 2005، إضافة جديدة لهذا الجهد، وإن كان ما حقّقه من نجاح لا يمكن مقارنته بما حقّقه فيلم «الخروج». ركز «ميونيخ» على نفوس اليهود في إسرائيل في سياق حملة غولدا مائير لاغتيال مثقفين فلسطينيين في أوروبا «انتقاماً» لعملية ميونيخ التي شنّتها جماعة «أيلول الأسود» وقُتل فيها 11 رياضياً إسرائيلياً أثناء الألعاب الأولمبية في ميونيخ عام 1972. وكما كنتُ قد حاججت في حينها في معرض نقدي للفيلم، فإنّ تركيز فيلم «ميونيخ» على تفوّق المنظومة الأخلاقيّة اليهوديّة على المنظومات الأخلاقية الأخرى لا يحيد قيد أنملة عن المنظومة الدعائية الإسرائيلية التي تزعم بأنّ الجنود الإسرائيليين «يطلقون النار وهم يبكون».

أمّا حقيقة أنّ العنف الفلسطيني لم يكن سوى جزء من المقاومة للغزو والقتل الصهيونيين، فلا يدخل في حسبان الفيلم. فالفيلم مثلاً لا يتطرّق إلى قصف سلاح الجو الإسرائيلي للمخيمات الفلسطينية في لبنان وسوريا عقب عملية ميونيخ مباشرة، والتي راح ضحيتها مئات القتلى الفلسطينيين، حيث إن ذلك لا يبدو أنه يهدّد نقاء نفوس الإسرائيليين. ومع أن الفيلم يطرح تساؤلاً بشأن ما إذا كانت سياسة الإرهاب التي خطّطت لها ونفّذتها غولدا مائير واستهدفت أفراداً فلسطينيين لم تكن صائبة، إلّا أنه يصرّ على الإجابة بأن الفلسطينيين هم من فرض خيار الإرهاب على إسرائيل. فالنقطة الأساسية التي سعى الفيلم لإيصالها إلى الجمهور هي التالي: بما أن المنظومة الأخلاقية اليهودية تتفوّق على المنظومات الأخلاقية الأخرى، فقد كان الأجدر بإسرائيل أن تترفّع عن استخدام وسائل أعدائها ذاتها في الردّ.

أولادنا

هذا بالضبط هو المبدأ المنظّم للمسلسل ذي الإنتاج المشترك بين القناة التلفزيونية الإسرائيلية رقم 12 وقناة إتش.بي.أو. HBO الأميركية، وعنوانه «أولادنا»، والذي انتهى بثّه الأسبوع الماضي. يستهلّ المسلسل حلقته الأولى بحادثة اختطاف وقتل ثلاثة مراهقين يهود إسرائيليين من المستوطنين في الضفة الغربية في حزيران/ يونيو 2014 على أيدي رجلين فلسطينيَّيْن، عضوين في منظمة «حماس»، وإن كانا قد قاما بعملية الخطف من تلقاء نفسيهما ومن دون أن يُعلما المنظمة.

لا يزوّدنا المسلسل بتفاصيل عن عملية خطف المراهقين الثلاثة، ولا يذكر أنهم كانوا مستوطنين إلّا عرضاً، بينما يكشف هوية خاطفَيهم بأنهما فلسطينيان. ولا نعرف اسمي الخاطفين حتى الحلقة الأخيرة من المسلسل، عندما نكتشف أن الجيش الإسرائيلي قد قام بإطلاق النار عليهما وقتلهما ومن ثمّ قام بهدم منزلَي عائلتيهما. ولكن المسلسل لا يسرد لنا الأسباب التي دفعت بالرجلَين للقيام بعملية الاختطاف، ولا نعرف شيئاً عن خلفيّتهما أو حتى عن عائلتيهما اللتين تسكنان في مدينة الخليل، ولا يخبرنا عن معاناة العائلتَين تحت الاحتلال الإسرائيلي، ولا ما تكابدانه من عنف المستوطنين اليهود.

أمّا العملية العسكرية الإسرائيلية التي أعقبت عملية الخطف وأدت إلى مداهمة الجيش الإسرائيلي لأكثر من 1300 منزل ومنشأة فلسطينية واعتقال 800 فلسطيني وقتل تسعة، فإنّها أحداث لا تستحقّ الذكر بالنسبة إلى مسلسل «أولادنا»، بينما يركّز كلّ اهتمامه على معاناة المواطنين اليهود الإسرائيليين بعد عملية الاختطاف.

> يروّج المسلسل بأن التهديد للمنظومة الأخلاقيّة الإسرائيلية ليس إلا المقاومة الفلسطينية

وتبدأ قصة المسلسل في أعقاب اكتشاف الشرطة الإسرائيلية لجثث المراهقين اليهود الثلاث، واندلاع أعمال العنف اليهودية التي استهدفت مدنيين فلسطينيين في شوارع القدس ومدن أخرى، حيث قام ثلاثة مستوطنين (مراهقَيْن وهم أبناء خال، ومعهم خالهم) بقتل وحرق المراهق الفلسطيني ابن الستة عشر عاماً محمد أبو خضير حياً، «انتقاماً» لقتل المستوطنين الثلاثة.

الاختطاف الانتقامي

يقدّم المسلسل قصّة المستوطنين القتلى الثلاثة على أنها السبب الأساسي التي تنبثق منه كلّ الأحداث التي تليه. ويعاني المسلسل في الوقت ذاته من هذه الجريمة البشعة التي تمثّلت باختطاف المراهق الفلسطيني من أمام بيته من قِبل المراهقَين اليهوديين اللذين قاما بخنقه قبل أن يقوم خالهم بضربه بقضيب حديدي وبإشعال النار فيه وهو حيّ.

تكمن معاناة الجماهير الإسرائيلية اليهودية، ومعاناة المسلسل ذاته، في إشكالية عدم تصديقها بأنه يمكن ليهود أن يرتكبوا جريمة كهذه، وإن كانوا فعلاً قد ارتكبوها فهذا سيعرّض الأخلاق اليهودية، بل نفوس كل اليهود، للخطر. وفي سبيل تطهير نفوس اليهود من هذا الدنس، يقدّم المسلسل للمتفرّجين كلّ تفصيل عن حياة الإرهابيين اليهود الثلاثة بقصد أنسنتهم. فنرى مثلاً الخال يعزف الغيتار ويغنّي لطفلته، ويهتم بأولاد أخواته، ويعاني من شعور بالنقص أمام أبيه (والأب حاخام من اليهود العرب يدير مدرسة يهودية دينيّة قام بتأسيسيها)، ويعطف على أمّه المريضة، ويتناول العشاء الطقسي ليوم السبت المقدس عند اليهود، ويدخّن السجائر مع أولاد أخواته في الحديقة الخلفيّة لمنزله، المبني على أرض مسروقة من الفلسطينيين، داخل مستوطنة يهودية في الضفة الغربية.

ويخبرنا المسلسل أنه قد انتقل للسكن في المستوطنة، لا لأسباب أيديولوجية صهيونية، كما هو الحال مع المستوطنين اليهود الأشكنازيين (أي من ذوي الأصول الأوروبية)، بل نتيجة رخص الأسعار في المستوطنة مقارنة بأراضي 1948.

ويعرض لنا المسلسل أيضاً مشاهد عن ابنَي أختَيه في سياق عائلي. الأصغر بينهما مصاب بالتأتأة ويشعر بحمل كبير نتيجة طموح أهله ومخطاطاتهم بأن يدرس في مدرسة دينية كي يصبح حاخاماً مثل أبيه وجده لأمه. نراه يعاني من مشاعر الذنب واليأس والتي يعبر عنها في جلسات مع طبيبته النفسية، وهي طبيبة أشكنازية تقدّم خدماتها للمجتمع اليهودي من المتدينيين.

أما مخبر الشاباك (جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الداخلي) المتديّن، الذي يعثر على المجرمين ويحل لغز الجريمة، فيعاني بدوره من مشاكل وهموم مماثلة. فهو يهوديّ مغربيّ متديّن شأنه شأن الإرهابيين الثلاثة ويعاني من الشعور بالذنب نتيجة تردّده في تحمل مسؤولية أمه العجوز وتوقعاتها منه، ومن توقعات أخيه المتدين.

يقدم المسلسل رؤساء مخبر الشاباك وزملاءه الأشكنازيين والنائب العام الأشكنازي، الذي يترافع ضد الإرهابيين الثلاثة كممثل للدولة، على أنهم مهنيّون، يترفعون عن مشاعرهم ويبدون موضوعية لا يبديها زميلهم اليهودي المغربي. وحتى الطبيبة النفسية الأشكنازية، شأنها في ذلك شأنهم، تترفع عن مشاعرها وتصرّ على مهنيتها في سبيل إحلال العدالة القضائية. وفي تصويره هذا، يفضح المسلسل النظرة الأشكنازية النمطية والعنصرية عن اليهود العرب ككائنات عاطفية، مثلهم مثل باقي العرب، تجد صعوبة في أن تكون موضوعية.

إزالة الأنسنة عن الفلسطينيين

أما الفلسطينيان اللذان قاما بخطف المستوطنين المراهقين الثلاثة، فلا يحظيان بأيّ قسط من الأنسنة، فكل مشاهد الأنسنة التي يعرضها المسلسل تكاد تكون محصورة بالإرهابيين اليهود، وإن حظي والدا محمد أبو خضير بقسطٍ من الأنسنة (التي لا تطال إخوة محمد فيما عدا أخيه إياد الذي ينال قسطاً ضئيلاً منها)، وإن كان أقل بكثير من مشاهد أنسنة قاتلي ابنهم.

لا يعرض المسلسل مشاهد عن حياة عائلة أبو خضير اليومية، ما عدا في حدادهم على ابنهم الذي يشاركهم فيه فلسطينيون مجهولون وبلا أسماء. فمثلاً، لا نرى العائلة تغني، أو تتناول وجبة العشاء، أو تتبادل الهدايا، كما هو الحال مع عائلات القتلة اليهود، وإن كنّا نراهم يعملون عند رؤساء يهود أو مع زبائن من اليهود. ونرى أيضاً مشادّة بين المراهق محمد أبو خضير وأبيه، حيث كان محمد مغرماً بفتاة سورية لاجئة تعيش في اسطنبول يبعث لها رسائل على هاتفه المحمول دون توقف، ما أدى إلى إهماله لعمله. ونكتشف أن محمد يحبّ رقص الدبكة، لكن عدا عن ذلك لا نعرف عنه إلا القليل. وهناك فلسطينيّ آخر يسمح له المسلسل بالحديث عن نفسه، ولكن من دون تزويدنا بمعلومات عن حياته. فيخبرنا أبو زهدي بأن الجيش الإسرائيلي قام بقتل ابنه وبهدم بيت العائلة كعقاب على مقاومة ابنه للاحتلال. ولكن لا يعرض المسلسل أيّ مشاهد عن ابنه وعائلته في محاولة لأنسنتهم. وفي ما خلا ذلك، يقدم المسلسل الفلسطينيين كرعاع يستخدمون العنف ويعكّرون صفو مدينتهم التي تحتلّها إسرائيل، والتي أعلنتها عاصمة للدولة اليهودية.

يعبّر مخرجو المسلسل عن فخرهم بموضوعيتهم السطحية نتيجة عرضهم لبعض مظاهر معاناة الفلسطينيين والوضع الكافكائي الذي وجدت عائلة أبو خضير نفسها فيه، لا سيما عمليات الاستجواب التي تعرّضت لها من قِبل الشرطة الإسرائيلية. لكن التعاطف الذي يعرضه المسلسل مع عائلة أبو خضير هو نقطة في بحر التعاطف الذي يعرضه مع الإرهابيين اليهود الثلاثة وعائلاتهم والذي يكرّس مسلسل «أولادنا» معظم مشاهده له.

الاعتراض على المسلسل

على الرغم من ذلك، فإن المسلسل يفضح التمييز الذي يتعرّض له الفلسطينيون على يد الشرطة الإسرائيلية، وأجهزة الأمن، والقانون، والمحاكم، وهو ما تسبّب بإدانة المسلسل من قِبل الإسرائيليين اليهود الذين أرسلوا مئات الرسائل معترضين على تحيّز المسلسل للفلسطينيين بحسبهم، كما قام رئيس الوزراء الإسرائيلي بالتنديد بالمسلسل على أنه مسلسل «معادٍ للسامية»، وطالب الإسرائيليين بمقاطعة القناة 12 الإسرائيلية المنتجة له.

وبالرغم من أن عملية خطف وقتل المستوطنين الثلاثة قد أدت إلى الهجوم الإسرائيلي على غزة في تموز/ يوليو 2014 والذي راح ضحيته 2251 فلسطينياً، بمن فيهم 551 طفلاً على الأقل، و11،231 جريحاً من بينهم 3436 طفلاً، إلّا أن المسلسل لا يعرض سوى مشاهد من التغطية التلفزيونية الإسرائيلية للهجوم الإسرائيلي على غزة، ومن دون أية توضيحات أو تفاصيل. كذلك، لا يتعرّض المسلسل لدعوة النائبة الإسرائيلية في الكنيست أيليت شكد على موقع «فايسبوك» إلى إبادة الشعب الفلسطيني كلّه، قبل يوم واحد من قتل محمد أبو خضير، وهي دعوة نالت تأييد الآلاف. وقد تبوأت شكد منصب وزيرة العدل بعد أقل من سنة على دعوتها الإجرامية هذه. لكن كلّ هذه الأحداث ليست ذات أهمية بالنسبة إلى المسلسل.

فالعِظة من القصة التي يسردها مسلسل «أولادنا» هي أن الفلسطينيين الذين لا يقاومون الاستعمار والعنصرية الإسرائيلية، والذين يعملون عند يهود ويتعاملون معهم (كان محمد قد اشتغل كنادل في مطعم يهودي قبل أن يقتل)، لا يستحقون أن يُحرق ابنهم حياً، حيث يحطّ هذا من تفوّق المنظومة الأخلاقية اليهودية، ويعرّض نفوس اليهود للخطر. أما الفلسطينيون الذين يقاومون إسرائيل، فيستحقون الحرق أحياءً بالقنابل الإسرائيلية، من دون أن يمثّل ذلك تهديداً لتفوق المنظومة الأخلاقية اليهودية.

وهنا تكمن أهمية عنوان المسلسل وهو «هنِعَريم» بالعبرية، وتعني «الشبان» أو «المراهقون»، وقد تمّت ترجمته على نحو ركيك إلى العربية بكلمة «فتيانٌ» مع إضافة التنوين في الأصل، لكن تمت عنونته بالإنكليزية بـ«أولادنا» Our Boys، حيث يعود ضمير الملكية المتصل «نا» على إسرائيل. يفضح العنوان الإنكليزي للمسلسل الأجندة الأيديولوجية لمنتجي المسلسل (وليس هنالك أي فلسطيني من بينهم) ومخرجيه الثلاثة، أحدهم من المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، والثاني إسرائيلي يهودي أشكنازي، بينما الثالث هو يهودي أميركي أشكنازي مستوطن أتى إلى القدس مع عائلته من المستوطنين المتدينين عندما كان في الخامسة من عمره.

تنتصر مبادئ إسرائيل الأخلاقية المتفوّقة في نهاية المسلسل وتنجو نفوس اليهود الإسرائيليين نتيجة إدانة المحكمة الإسرائيلية لليهود الإرهابيين الثلاثة بالقتل، وإن كانت المحكمة رفضت طلب عائلة أبو خضير بأن تقوم بهدم بيوت عائلات الإرهابيين اليهود، كما تفعل مع «الإرهابيين» الفلسطينيين.

عدا عن ذلك، لا ينفك مسلسل «أولادنا» يذكرنا، شأنه في ذلك شأن فيلم «ميونيخ»، بأن ما يشكّل تهديداً لتفوق المنظومة الأخلاقيّة الإسرائيلية ونفوس اليهود ليس إلا المقاومة والعنف الفلسطيني، وليس الغزو الاستعماري ولا الاحتلال العسكري ولا العنصرية الممأسسة. وفي تأكيده هذا، يتبع المسلسل خطى غولدا مائير في مقولتها العنصرية الشهيرة التي تلخّص فيها هدف المسلسل الرئيس أفضل تلخيص: «بإمكاننا أن نغفر لكم قتلكم لأولادنا، ولكننا لن نغفر لكم أبداً إجبارنا على قتل أولادكم».

*أستاذ السياسة وتاريخ الفكر العربي الحديث في جامعة كولومبيا في نيويورك، صدر له حديثاً كتاب «الإسلام في الليبرالية»، جداول للنشر، بيروت (2018) و«آثار استعمارية: تشكّل الهوية الوطنية في الأردن»، دار مدارات، القاهرة (2019).

المسجد الأقصى (أحمد غربلي)

الصين في النظام الدولي: التحدّي الأكثر واقعيّة

علي إبراهيم مطر *

لا ينتهي الحديث عن تغيّرات النظام الدولي، ويكثر البحث حوله من أجل فهم البيئة المحيطة بالدول، حيث تحدّد هذه العلاقات وترتسم معالمها من قِبل الفاعلين الدوليين. كثُر البحث، في الآونة الأخيرة، عن حقيقة تبدّل معالم هذا النظام، الذي تحوّل إلى نظام القطب الواحد عقب سقوط جدار برلين وانهيار الاتّحاد السوفياتي، ولكن مع مرور ما يقارب الثلاثة عقود بات يتحوّل إلى نظام متعدّد الأقطاب.

في ذروة هذا التحوّل، تتّجه أنظار العالم نحو الصين. الدولة التي لم تعُد منكفئة على ذاتها، والتي أصبحت جاهزة لمقارعة الهيمنة الأميركية، بعدما بات على الأخيرة أن تتقبل فقدانها الأحادية في النظام الدولي. تثبت الصين اليوم أنها تخطّت مرحلة التأسيس، فسبعون عاماً كفيلة لتؤكّد قوّتها العظمى الموازية لقوة بلاد العم سام، لا بل أكثر. وهي على أعتاب تحوّل النظام الدولي إلى نظام متعدّد الأقطاب، تتحوّل فيه الصين إلى صاحبة دور محوريّ، فيما تبدأ الولايات المتّحدة بالانكفاء، مكتفيةً بحيّز كبير من المشاركة في إدارته مع محاولة إظهار تفوّق دائم في وجه أقطابه.

إمبراطورية الهيمنة تتداعى؟

لا ينفي المنظّرون الأميركيّون أطروحة تراجع الهيمنة العالميّة للولايات المتّحدة، ويحاولون من خلال تقبّل هذا الواقع، التخطيط لهذا التراجع وإدارته بالشكل الذي يصل ببلادهم إلى أن تكون إحدى القوى الرئيسيّة بدلاً من أن تنهار. وعلى حدّ تعبير المفكر الأميركي الشهير روبرت كابلان، فإنه ليس هناك شيء أفضل بالنسبة إلى بلاده من تهيئة العالم لاحتمال زوالها، وترتيب آلية مناسبة للتراجع المتناسق كي تطيل من أمد بقائها كأمّة قوية، مشيراً إلى أن العولمة التي اخترعتها الولايات المتحدة لترسيخ هيمنتها على العالم استغلّتها قوى أخرى (على رأسها الصين) كأداة لتقويض النفوذ الأميركي من داخل هذا النظام.

ويشكّل السعي الحثيث للوقوف في وجه الهيمنة الدولية الأميركية سبباً واضحاً لتأجيج الصراعات العالمية. بالتالي، فإنّ تشكيل تحالف ضدّ الهيمنة الأحادية القطبية للولايات المتّحدة الأميركية، والتحوّل من مجرّد التماشي واحتواء السيطرة، إلى البدء في الانتقال إلى المواجهة، يعني بدء التراجع في النظام القائم على الهيمنة، ما يؤدّي إلى استخلاص نتائج تُظهر أنّ مشروع الهيمنة يتداعى، خصوصاً أمام تحوّل النظام الدولي إلى التعدّدية القطبية. لقد أشار كتّاب أميركيون إلى أنّ أغلبية القوى العظمى خسرت قيادتها، ليس بسبب سعيها للهيمنة، بل لأنّ القوى المناوئة الأخرى قامت بتوازن مضادّ بوجهها. (للمزيد حول هذه النقطة انظر الدكتور حسام مطر، «الهيمنة الساحرة»، صادر عن مركز باحث للدراسات، الطبعة الأولى 2018).

ويمكنني القول إن الولايات المتّحدة بدأت تخسر سيطرتها القطبية أو أحاديتها بين الأقطاب، منذ تورّطها في غزو العراق عام 2003، بعدما بحثت قبل ذلك عن العدو المفقود، فوجدت ضالّتها بعد أحداث أيلول 2001 في تنظيم «القاعدة». وها هي، اليوم، أصبحت تواجه منافسات ليست دولية فقط، إنّما إقليميّة أيضاً، كما يحصل في علاقتها مع إيران، وذلك بهدف إعادة التوازن إلى النظام الدولي، لا سيما أنّ هناك من يضاهيها عسكرياً، أو على أقلّ تقدير قادر على مواجهتها وتوجيه ضربات قاسية إلى أمنها إن لم نقل هزيمتها، فضلاً عن أن قدرتها على المناورة عبر فرض عقوبات اقتصادية دائمة، قد لا تكون الورقة الرابحة دائماً، خصوصاً في ظلّ وجود إمكانية المواجهة كما في الحرب التجارية مع الصين. إضافة إلى ما تقدّم، لم تنجح قوتها الناعمة دائماً، على عكس الصين مثلاً، التي تظهر أقلّ تهديداً للعالم منها. (انظر، Joseph S. Nye, What China and Russia Don’t Get About Soft Power, foreignpolicy, April 29, 2013).

الصين التحدّي الأكبر

وتُعدّ مرحلة التحوّل من نظام دوليّ إلى آخر، من أخطر المراحل في العلاقات الدولية. وهنا يحذّر وزير الخارجية الأميركي الأسبق هنري كيسنجر الولايات المتّحدة الأميركية من الانعزال عمّا يجري في العالم. كذلك، يحذّر في كتابه النظام العالمي من خطورة الانتقال إلى الميدان المفتوح لأكثر المساعي التوسعية وأكثر اللاعبين عناداً. وهو يجزم بأنّ المفهوم العام الذي يستند إليه النظام العالمي في عصرنا الحديث يمرّ بأزمة حقيقية، ولعلّ الاضطرابات والحروب الدائرة رحاها في أكثر من منطقة في العالم خير دليل على عمق هذه الأزمة. ويرى كيسنجر أنّ النظام العالمي الجديد يستحيل أن يكون أحادي القطب، بل ينبغي أن يكون متعدّد الأقطاب، مشتركاً بين الولايات المتّحدة والصين، معتبراً أن لا مناصّ من عالم متعدّد الأقطاب، يسوده اقتصاد السوق.

ويبدو لي أيضاً في ظلّ هذا التحوّل، أنّ النظام الاقتصادي العالمي القائم على الأحادية لن يدوم طويلاً، فكما بدأ الانتقال إلى مرحلة التعددية في السياسة الدولية، بات العالم بحاجة فعلية لنظام اقتصادي يقوم على التشارك والدمج بدلاً من الاستئثار، لأنّ الدول لن تصمد كثيراً في حال استمرّ الاقتصاد العالمي على ما هو عليه. وبالتالي، فإنّ الدول المتضرّرة لن تسكت كثيراً عن السياسة الاقتصادية الأميركية تجاه العالم، وهنا بإمكاننا النظر إلى التحوّلات الاقتصادية في روسيا والصين، والتي أصبحت تتخطّى العقوبات الاقتصادية لا بل تحاربها.

لقد تغيّرت نظرة الغرب، وخصوصاً نظرة النُخب الأميركية في مراكز الدراسات والجامعات والصحف، إلى الأحادية القطبية. وهذا ما يقودنا إلى القول إن العالم المتعدّد الأقطاب هو بديل جذريّ للعالم أحادي القطب، وهنا يأتي دور الصين التي لم تعُد لاعباً سهلاً تنظر إليه واشنطن على أنّه تحدٍّ اقتصاديٌّ عالميٌّ، بل بات يتحوّل إلى الأكثر فاعلية في النظام الدولي، خصوصاً مع فرض الصين نفسها في الذكرى السبعين لتأسيسها، على أنها اللاعب الأكثر تهديداً للولايات المتّحدة.

ويمكن دمج القوّة الاقتصادية التي تتمتع بها الصين، والتي نمت خلال العقود الثلاثة المنصرمة، مع ما عُرض من قوة عسكرية ضخمة، حيث يأتي استعراض قوتها العسكرية كرسالة قوية ممزوجة بقدرة نووية، فضلاً عمّا تشهده من ثورة تكنولوجية ضخمة، لا سيما أن الحكومة بدأت تعي أهمية مواجهة الاستراتيجية الأميركية في المحيط الهادئ. أضف إلى ذلك، القدرة على التحرّك في السياسة الدولية، كونها تعدّ عضواً دائماً في مجلس الأمن الدولي تتمتّع بحق النقض الفيتو، ولديها سياسة خارجية قوية منفتحة على كلّ دول العالم وقادرة على نسج تحالفات عدّة، من خلال استخدام الاستراتيجية الذكية، فضلاً عن تمتّعها بموقع جغرافيّ استراتيجيّ يسمح لها فعلاً بتأسيس مبادرة الحزام والطريق، حيث تقع الصين في النصف الشرقي من الكرة الأرضية والجزء الشرقي من قارة آسيا والساحل الغربي من المحيط الهادئ، إذا ما أخذنا كلّ ذلك في عين الاعتبار، فإنّنا سنكون أمام قطب عالميّ مستعدّ لتصدّر النظام الدولي، وليس المقارعة فيه فقط.

بناء عليه، يمكننا أن نخلص إلى أن الصين، التي لم تكن سابقاً تتسابق على تصدّر المشهد في العلاقات الدولية، تعدّ اليوم، مع ما تملكه من قوة على المستويات كافة، لاعباً رئيسياً في السياسة الدولية يمتلك ثاني أكبر اقتصاد في العالم وجيش كبير لديه أسلحة استراتيجية ونووية وقوة تكنولوجية وذكية وناعمة، تجعلها أقلّ خوفاً في التقدّم نحو مقارعة واشنطن، وبالتالي تحوّلها إلى القوة الأكثر تأثيراً في النظام الدولي، والتي تشكّل التحدّي الأكثر واقعية لإسقاط الهيمنة الأميركية على العالم.

***أكاديمي وباحث في العلاقات الدولية**